الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً" .

الوسطيَّة وإعادة بناء الفكر الديني في سياق البحث عن شراكة في الإسهام الحضاري (مقاربة نقدية)

✍ .عبد الرحمن الحاج
رئيس تحرير موقع الملتقى الفكري للإبداع

"إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين" حديث نبوي شريف مروي عن ابن عباس (رضي الله عنه)، أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم.أولاً: الوسطية بوصفها رؤية للعالمفي حقبة من الحقب يظهر يسود نموذج جديد للتفكير (Paradigm) بسبب تغييرات كبرىٰ تحدث تحويلاً في رؤية الناس للعالم (Weltanschauung) ومتغيراته، وفي العادة يتم التعبير عن المفاهيم الجديدة بمصطلحات تجريدية للغاية، عادة ما تكون غير قابلة للضبط بشكل نهائي، ومع ذلك فإن هذه المراوغة والنزوع الزئبقي لمصطلحات للتفلت من قبضة التعاريف الصارمة والحادة هي التي تمنح هذه المصطلحات قدرتها علىٰ التأثير والإلهام والتغيير.وفي مقابل ذلك فإن ظهور هذه المصطلحات في سياق الأحداث وقدرتها علىٰ التعبير عن الرؤية الجديدة للعالم يمنحها توهجاً خاصاً، يجذب هذا التهج بدوره إليها أكبر قدر من الاجتماع الإنساني (المحلي أو العالمي، طبقاً لحدود الاجتماع الذي أصابته التغييرات) غير أن الملاحظ في المجتمعات الإسلامية (التي لها صلتها الخاصة بتراثها الديني) نزوعها لتأصيل التغييرات عبر النصوص الشرعية، وغالباً لا تأخذ المصطحات دورها التحريضي دون أن يحصل هذا التأصيل والتجذير (القسري ربما) في المعرفة الدينية والتراث الإسلامي بوجه عام، وما أن يتم التأصيل حتىٰ تبدأ المجاذبات المفهومية لهذه المصطلحات، لكسب الشرعية وسحبها من الآخرين!.هذا ما حدث بالضبط مع العديد من المصطلحات الكبرىٰ في التاريخ الإسلامي الحديث، فمصطلح "الإصلاح" الذي "ابتكره" به الشيخ محمد عبده بمضومنه الجديد يختصر دلالياً تفسير الحالة التي يمر بها المسلمون والحل

المطلوب لها، فمفهوم "الإصلاح" مهما اختلف فيه فإنه يتضمن إقراراً بالسلب بوجود "عطل" أصاب الأمة وخلفها عن التقدم، وتصريحاً بإعادة تأهيل الأمة وتخليصها من "العطل". والمعركة التي قامت حول مفهوم مصطلح "الإصلاح" قامت ولم تقعد حتى بعد وفاة الشيخ عبده، ولم ينتهي الجدل حولها إلا في بسقوط الخلافة العثمانية الشريفة في العشرينيات المنصرمة، ولابد من ملاحظة أن مصطلح "الإصلاح" ما كان يستطيع أن يثير هذا النقاش الواسع ويقع في التجاذبات للأطراف الفكرية المختلفة في العالم الإسلامي لولا أنه تم تأصيله ومده بالمشروعية عبر ربطه بآيات القرآن الكريم التي استعملت لفظ "الإصلاح" ولكن في حدود الدلالة اللغوية، وهو ما أعطى فرصة لاستثمارها في المصطلح الجديد بدون أية عوائق عبر التذبذب بين الدلالة الغوية والدلالة الاصطلاحية اللتان تتراتبطان بشكل قوي للغاية.الأمر ذاته حدث مع مصطح "التجديد" الذي شهدنا التفافاً غير مسبوق حوله بدءاً من السبعينيات المنصرمة، ولايزال الجدل حوه دائر إلى اليوم، ولكنه آخذ إلى الخفوت، فقد أصبح دعاة "التجديد" يمثلون نمطاً جديداً في التفكير له ملامح تميل نحو التمايز، ولكنه ما يزال متوهجاً وملهماً إلى اليوم. 1 . مصطلح الوسطية: معركة التجاذبوفي السنوات الأخيرة دخل مصطلح "الوسطية" بشكل غير مسبوق حيِّزَ الاهتمام الاسلامي العام، فقد صدرت عشرات الكتب تحمل في عنوانها هذا المصطلح، مثل: "الوسطية في الإسلام"، و"الوسطية في الفكر الإسلامي" و"الوسطية: حياة وحضارة" و"الوسطية في ضوء القرآن الكريم" و"مفهوم الوسطية في السنة النبوية"، وغير ذلك مما يؤشر على حضور جديد واستثنائي لهذا المصطلح.وبالطبع فإنه سرعان ما بدأ صراع التجاذبات والشرعيات، وبلغ التجاذب حداً جعل البعض يجد فيه تعبراً أصيلاً عن السلفية التقليدية أو"منهج أهل السنة والجماعة، وسلف الأمّة"، ويجد فيه آخرون ما يمنحهم الشرعية لعصرنة الإسلام والخروج من "أَسْرِ" التراث الفقهي إلى "رحابة" الاجتهادات الجديدة التي تأخذ بيد المسلمين للشراكة مع العالم!. ولأن الوسطية لغوياً تعرف بأنها وسط بين أمرين وهي لم تغادر كثيراً فضاء الدلالة اللغوية فقد حدد كل امرء مسافة الوسط وفق مقاييسه الخاصة وأسقط عليها مفهومه عن المصطح، حتى وقعت المصطح أسير هذا اتوسط، فاتقسمت الوسطية إلى وسطيات: بين "وسطية مستنيرة" وأخرى (بضرورة التلازم أو المفهوم (حسب مصطلح أصول الفقه)) "وسطية مظلمة" وثالثة ربما تكون "وسطية علمانية"! وبما أن مقترح هذا التقسيم الجديد للوسطية جاء من المجال السياسي، فعلينا أن نتوقع أنه متأثر جداً بمفهوم "الوسط" السياسي المعروف، والذي نشأ في فرنسا مطلع القرن وأصبح من المصطحات السياسية المتداولة عالمياً في المجال السياسي، ومعروف أن "الوسط" في المفهوم السياسي يمكن أن يكون "يسار الوسط" أو "يمين الوسط" وحتى "وسط الوسط"!.ليست

مشكلة المصطلح دخول معركة التجاذبات المفهومية والشرعية وحسب، فهذه المعركة سنة إلهية لا يملك أحدٌ لها دفعاً، إذ ثمة ظاهرة أخرى متممة وللظاهرة الأولى، وهي ظاهرة الابتذال التي تصيب عادة المصطلحات الكبرى بالتسطيح عندما تبدأ بالنزول إلى أوساط العامة والجماهير لتلتف حولها، إذ لا تقدر الجماهير على استيعاب الجدل الفكري والفقهي المعقد، وتكتفي بطبيعتها بالاختصار والتبسيط الشديد، ويلعب دو التوسيط هذا نمط من محدد من الدعاة و"أنصاف المثقفين"، هؤلاء الذين لهم منزلة وسيطة تسمح لهم بالاتصال بالنخبة العالمة والجماهير في وقت واحد، وباتالي القدرة على تسويق هذه المفاهيم وجمهرتها. وتكاد النسخة الشعبية "للمصطلح" تفقد معنى الجدل "العلمي" حولها إذ يستعمل المصطلح في صغائر الأمور وكبائرها، حتى يوشك أن يفقد معناه بالمرة. هكذا يجرى الأمر الآن لمصطلح "االوسطية" ما بين التجاذب المفهومي والشرعي والجمهرة، حتى أصبح "فضفاضًا بصورة تستوجب تحريره قبل أي كلام بصدده"، فقد "عدت عليه العاديات، وجرت عليه النائبات" على حد تعبير بعض المفكرين.بالتأكيد فإن الأمر نفسه حدث من قبل مع مصطلحات كبيرة أخرى، مثل و"الحضارة"، حتى كاد المرء لا يسمع كلمة حضارة أو يقرأها في عنوان خطاب أو نص ما إلا وينتابه شعور بالبساطة والابتذال. وربما هذه الأيام يحدث مع مصطلح "الإرهاب" بعد أن أفلته السياسيون من عقاله ليطال معارضيهم ويدخل بوتقة الإعلام التي تلعب دور تسطيحه وجمهرته.2. مصطلح الوسطية: تاريخ الانبعاثأن يثار الاهتمام فجأة بمصطلح ما ويدور النقاش حوله ويدخل معركة التجاذبات أمر يدعو للتفكير والتساؤل عن سبب ظهور المصطلح وتداوله بهذه الكثافة غير المسبوقة، ولم يشهد هذا المصطلح تأريخاً دقيقاً بعد، وهذا لا يغي حقيقة وجود بعض الإشارات العابرة لذلك، ولكنها تبقى مجرد إشارات.يفتقد الخطاب الإسلامي في السبعينيات لمصطلح "الوسطية"، ونكاد لا نعثر البتة على هذا المصطلح، وفي مطلع الثمانينيات بدأ المصطلح بالظهور بشكل متدرج، لم يكن بعد قد استعمل بعيداً عن دلالته اللغوية، وبظني فإن كتابات الشيخ يوسف القرضاوي هي الكتابات المؤسسة لهذا المصطلح، وخصوصاً كتابه "الصحوة الإسلامية: بين الجحود والتطرف"، لقي الكتاب وقتها إقبالاً وشهرة منقطعي النظير، وأعيد طبعه مرات عدة خلال عام واحد، وفي هذا الكتاب يخصص فصلاً مختصراً بعنوان "دعوة الإسلام إلى الوسطية" يتحدث فيه في بضعة سطور عن وسطية الإسلام، وأن "الوسطية إحدى الخصائص العامة للإسلام"، وبالرغم من أن المصطلح بدأ منذ ذلك الوقت (أعني مطلع الثمانينيات) بالانتشار.الملاحظتان الرئيسيتان هنا، أولاً: المصطلح ظهر في سياق "مواجهة" التطرف والعنف الذي أصبح نهجاً للعديد من الحركات الإسلامية

منذ منتصف السبعينيات في مصر وسوريا وفلسطين، وبدأ بجذب الشباب المتدينين في ظل حالة الاستعصاء السياسي والتعامل اليساري الأصولي أو الاستئصالي مع الحركات الإسلامية والنزوع الديني في العالم العربي مع موجة المد القومي والماركسي. وثانياً: المصطلح مشحون بالانشغال السياسي، فهو عملياً نشأ من رحم المواجهة السياسية وظهر ليكون جزءاً من مواجهة سياسية فكرية محتدمة.أضيف إلى هاتين الملاحظتين ملاحظة أخرى؛ وهي أن مصطلح الوسطية لم يحمل في كتابات القرضاوي الأولى معنى التوسُّط بين شيئين (الإفراط والتفريط) بقدر ما كان يحمل معنى مواجهة التطرف الحركي والعنف، ويكاد معناه ينحصر في الدعوة إلى التعقل والتراجع إلى العمل السياسي السلمي. لا يعني هذا أن القرضاوي نفسه فيما بعد نحا بها منحى فكرياً مع كثرة تداول هذا المصطلح وميله للتعميم والدخول في مختلف الحقول التي يغطيها الفكر الديني ومعارفه، ولهذا فهو عرف الوسطية أخيراً بأنها "التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين؛ بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على قابله ويحيف عليه"، أي أن الوسطية بوصفها مكاناً بين رذيلتين (كما في التعريف الأرسطي لـ"الفضيلة") أصبحت مسلمة يكاد لا يختلف عليها أحد.وعلى الرغم من أن لحظة نشوء المصطلح تشي بالكثير من المسوغات السياسية للظهور، وتطبع السياسة بصماتها بشكل واضح عليه، إلا أن الكتابات فيما بعد حاولت نفي الارتباط بين ظهور مصطلح "الوسطية" والعنف الذي مارسته بعض حركات الإسلام السياسي ووسم بـ"الأصولية"، إذ تمدد مفهوم الوسطية ـ كما أشرت ـ ليشغل مساحات أوسع في الفكري الإسلامي، وبشكل أخص المساحة المعرفية والاجتماعية والأخلاقية.3. مفهوم الوسطية: انعكاس رؤية العالم لهذا التاريخ الذي سقناه مغزاه في فهم الوسطية؛ إذ يتجاوز هذا التاريخ مجرد ظروف وأحداث سياسية، ليكون تاريخاً لتغييرات أصابت الوعي الجماعي نتيجة للأحداث التي ولدت هذا المفهوم، وبشكل أدق فإن هذا المفهوم ليس إلا وليد تغييرات بنيوية في الوعي الجمعي بصدد رؤيته للعالم، وما كان ممكناً أن يصبح هذا لمصطلح (الوسطية) متداولاً ولا جماهيرياً لولاها، كما أنه لا يمكننا أن نحدد مدلوله اليوم دون معرفة واضحة بملابسات ولادته.في الخمسينيات احتدم اصراع الأيديولوجي بين اليسار القومي والماركسيون من جهة (التقدميين)، والإسلاميين (الأخوان بشكل خاص ربما) الذين كانو يطلقون عليهم (الرجعيون)، وابتداءً بالانقلاب الناصري مطلع الخمسينات على الأخوان والتنكيل بهم بدون رحمة واحتدام المعركة الأيديولوجية والسياسية على السلطة والمعرفة بدأ يسود شعور عام باستهداف الإسلام كدين، وأسس هذا الشعور العام لانتشار فكرة الثورة (التي زرعها اليسار وحصدها علقماً) والعنف المضاد، أو "الجهاد" ضد الظلم دى القطاعات الشابة المتدينة، لكن

هذه الفكرة ما كانت لتأخذ تأثيرها وإلهامها وتحفيزها وتتحول إلى فعل ووقائع وأحداث لولا إعدام سيد قطب (1964)، والانفجار الطائفي في سوريا (1978-1982)، ثم الثورة الخمينية الإيرانية (1979)، فخلال عقد ونصف من الأحداث ضغطت الذاكرة الجماعية إلى حد بدا فيه العنف الثوري الموجه إلى أنظمة الداخل مقبولاً، لقد اختلط الاستعصاء السياسي باستهداف الدين، وخرجت حركات إسلامية تعلن "الجهاد"، ولكن المآلات التي انتهت إليها تلك الحركات والاحباطات التي منيت بها والخسائر التي تكبدتها الشعوب خلال بضعة سنوات أورثت "قناعة" كاملة بأن العنف الثوري لن يقود إلا إلى مزيد من انسداد الأفق والخسائر.ما بين الحلم القومي العربي المنهار الذي دغدغ لأكثر من عقدين شعورَ غالبية الشعوب العربية، وإحباطات العنف السياسي، والحرص على المشاعر الدينية بدأ وعي الجماعة مقنعاً بجدوى العمل السلمي الذي يضمن إلى حد ما سلامة الدين والروح، ويقبل العزوف عن السياسة، ما لم تكن الفرص في العمل السلمي متاحة، ولنقل إنه ثمة قنوط من المجال السياسي الذي احتكرته الدكتاتوريات اليسارية وغير اليسارية أيضاً، وذلك في ظل إيمان مطلق بأن هذا الاستعصاء السياسي هو محصلة تآمر خارجي عالمي (يوصف تحديداً بأنه "صهيوني صليبي") قديم على الشعوب المسلمة، وعلى دينها، إنه المؤامرة الكبرى ضد الإسلام، والذين عايشو تلك الحقبة يذكرون كيف تكاد تجمع الكتابات اتي نشرت بين فترة نهاية الستينات ونهاية الثمانينيات على حصول هذه المؤامرة وتحميها المسؤولية الرئيسية.ما بين مؤامرة كبرى على الإسلام وإحباطات العنف الثوري ثمة إيمان نشأ فحواه العمل السلمي والكف عن الانشغال بالمجال العام والحرص على الدعوة لإيقاظ الضمير المسلم والحفاظ على ديمومته، ومن الطبيعي والحال هذه أن يلقى كتاب القرضاوي "الصحوة الإسلامية: بين الجحود والتطرف" (1982) إقبالاً منقطع النظير، ويصبح بمنزلة دليل عملي شعبي لشباب الحركات الإسلامية وجماهير المتدينين؛ فقد لامس رؤيتهم الجديدة لعالم، وبهذا فهو يكتسب أهمية تاريخية فضلاً عن أهميته الفكرية.ومع أن مصطلح "الوسطية" حظي باحتضان واسع في تلك الفترة، وبدأ على الفور يتجه باتجاه الجمهرة، إلا انه لم يكن يحظى كثيراً باهتمام النخبة العالمة، بقدر ما حظي باهتمام الدعاة الكبار وأتباعهم، ولكن مع أحداث أيلول/ سبتمبر 2001 بدأ اهتمام النخبة المفكرة أو العالمة في العالم الإسلامي بالوسطية على نحو غير مسبوق، فظهرت المنتديات الدولية عن الوسطية، ونشأت المؤسسات المختصة بالوسطية الإسلامية، وبدا أن الوسطية قابلة لتتحول إلى مشروع فكري واعد، أضف إلى ذلك أن معظم الكتابات اتي ظهرت عن الوسطية (في العربية على الأقل) ألفت بعد هذا التاريخ، وهذا يعني ـ فيما يعنيه ـ أن التطرف الديني السياسي الذي انتقل من المجتمع المحلي إلى

المجتمع الدولي وأصبح مفزعاً للعالم وتضرر منه المسلمون بشدة كان محفزاً لاستلهام مفهوم الوسطية والاستنجاد به مرة أخرى، ليكون معنى الوسطية في هذا إطار السياق التاريخي العام هو الوقوف في وجه التطرف.4. في الدفاع عن الوسطية: متاهة البينيَّة اللغوية أهمية مفهوم الوسطية ليست في الجمهرة التي يتمتع بها وتجعله ملهماً وحسب، بل أيضاً فيما يتضمنه من معنى التسامح والقبول بالاختلاف والتعامل اللين والعقلاني والرفيق مع مفاهيم الدين، لقد كانت هذه المعاني ومازلت تشكل أساس مفهوم "الوسطية" وتعبر بدقة عن لحظة تشكله وبدء تأثيره وإشعاعه للروح الإصلاحية الخلاقة للجماهير المسلمة، ولكن التحري المفهومي الاصطلاحي الذي اعتمد على الأساس اللغوي قاد المفهوم إلى ما لم يكن مجهزا له أو مقصوداً به من قبل.لقد كان المعنى الأساس الذي ولد مصطح الوسطية لأجله، هو الابتعاد عن التطرف والاقتراب من العقلانية والواقعية النسبية، بهذا المعنى الوسطية هي مسافة من الموقف الأيديولوجي، إنها مسافة من رذيلة واحدة بالأساس، هي التفكير الفكروي (الأيديولوجي) إن المسافة الأخرى من الأيديولوجيا ليس تطرفاً، بل منتهى العقلانية، والتسامح في الاختلاف واستعاب الآخر. ولما كان التعريف اللغوي للوسطية يستند غالباً إلى المعنى الحسي فقد كان موقع "البين" شيئين (رذيلتين) فقد أدى هذا المعنى اللغوي إلى دفع تفسير الوسطية باتجاه البينية، أي للتركيز على معنى البقاء على مسافة متساوية من طرفين رذيلين، ومع أن المعنى اللغوي أيضاً يمكن أن يشير إلى اوسطية باعتبارها الشيء الخير مطلقاً سواء بين رذلتين أم أما رذيلة واحدة، البينية ليست ذات معنى، الأهم هو "الخيرية". وقد أفضى هذا التركيز على البينية إلى الوقوع في مشكلة تحديد موقع الوسط، وسمح هذا بالتنازع على تحديد الموقع حسب انتماء كل امرؤ وتوجهه المذهبي، وفي خاتمة المطاف أوشك مصطلح "الوسطية" أن يفقد البوصلة التي وجدت معه منذ البداية، أعني مواجهة التفكير الأيديولوجي، ولسوء الحظ فقد أصبح هو مرتعاً خصباً لهذا النمط من التفكير!.بمجرد أن أصبح المصطلح بهذه الرخاوة المفهومية واتسع نطاق تداوله بشكل غير مسبوق، فقد شجع هذا على نشوء خطاب نقدي للوسطية، بل وإلى الدخول في مواجهة فكرية معها من كتاب وباحثين يعتبرون إصلاحيين وتجديديين! فمن جهة أوقع التفسير البيني للوسطية في شراك ثنائيات لا أول لها ولا آخر، والسعي للوقوف في مسافة بينية تجمع بين هذه الثنائيات بأي شكل كان، وهو أمر يعني دخولاً في جدل غير قابل للحسم، جدل "يتم فيه النقاش حول ذلك القدر الذي تم الجمع بينه من الطرفين، أو ذلك الشكل من الجمع، أو البحث في أي المجموعين تم إخضاعه للآخر؟ أو ما الذي تم قسره ليدخل في الآخر؟ أو هل تم فعلاً الجمع مع بقاء جوهر الطرفين دون تحوير أم تم تحوير الطرفين عينهما ليمكن الجمع من خلال طرف ثالث جديد مفارق للطرفين وإن كان فيه شبه بهما؟ فهل فعلاً الوسطية على هذا

تشكل حلاًّ؟"؛ فالدخول في منطق الثنائيات نفسه أساساً هو دخول في منطق تبسيطي ذي منحىً توفيقي، أليق بالمنطق الدعوي، وليس مسلكًا معرفيًّا.متاهة "البينيَّة" هذه في وجملة العاديات التي مرت علىٰ مصطح الوسطية، ونتائج معارك التجاذب ولد كتابات وتفسيرات للأحكام الشرعية تحت اسم الوسطيَّة تتسم تارة بالتشدد السلفيٍ وأخرىٰ بالسطحية التي تصل حد السذاجة تحت عناوين عصرية وربما حداثية أيضاً.بالنسبة لنا إن الشيء الذي يمنح الوسطية جدارتها لتكون مفهوماً ملهماً هو تخليصها من متاهة "البينيَّة" ذاتها، وإطلاقها حيث ولد معناها في مواجهة التفكير النضالي للعودة إلىٰ التفكير العلمي، ومن العماء الأيديولوجي إلىٰ بصيرة المعرفة، ومن مطلقات الأيديولوجيا إلىٰ نسبية الحقائق، ومن الفراغ المعرفي إلىٰ نضج العلم، هذا يجعل الدفاع عن الوسطية دفاعاً عن العدل، وعن منطق التعقل والتسامح والاعتراف بالقيم الفاضلة وممارستها بشكل عملي وشامل.ثانياً: خطاب الوسطية(بناء النسق الجديد والشراكة مع العالم)كثيراً ما تشي الكتابات التي تدرج نفسها تحت مصطلح الوسطية بوسطية شكلانية، إذ من البدهي أن لا يجعل هذه الكتابات وسطية بمجرد وجود مصطلح الوسطية فيها، ولو نزع منها مصطلح الوسطية لن يؤثر في بنيتها شيئاً، فهي قابلة لن تصف تحت إحدىٰ الاتجاهات الفكرية والمذهبية بسهولة!، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن معظم الكتابات التي تُدرج تحت مظلة الخطاب الوسطي تميل إلىٰ مضمون بسيط للغاية، حتىٰ شاع الانطباع لدىٰ الباحثين بأن كتابات الوسطيين هي كتابات مسطحة للغاية، ولا تخرج عن صنف الكتابات الدعوية التي تعنىٰ بالخطاب الجماهيري الإنشائي وحسب، وذلك علىٰ الرغم من أن مفهوم الوسطية البيني (منزلة بين منزلتين) ـ كما يؤمن به معظمهم الإسلامين الذين يسمون أنفسهم بالوسطيين ـ لا يجعل للوسطية حدوداً في أي مجال وعند أي مستوىٰ، ولكن لأن الوسطية نشأت في إطار جماهيري دعوي فقد بقيت عموماً تتحرك في هذا الفضاء وحسب، صحيح أن الفضاء الدعوي هو الأهم عند تشغيل المفاهيم وتحويلها إلىٰ ممارسات عملية جماهيرية، إلا أن ذلك لا يعني بالضروة قسرها علىٰ هذا الجانب، بل إن قسرها في هذه الحدود يحرم خطاب الوسطية من التطور والتقدم ومواكبة العصر.1. الأسئلة الحاضرة والأجوبة المؤجلة:خطاب الوسطية كما يبدو لنا في غالب نصوصه الراهنة يتصالح ظاهريًّا مع العصر، وتؤجِّل كل الأسئلة المتعلقة به بدلاً من أن تحلها، فهو يركز ـ بسبب النزعة الدعوية التي استغرق فيها ـ علىٰ تأخيل الخلاف، والعمل وفق المشترك والمتفق عليه، ومن الواضح أن هذا أقرب ما يكون لمنطق الخطاب الدعوي، لأن السلم الاجتماعي والتعايش المشترك يقتضي إعمال هذا المنطق، غير أن المشكلة ليست في وجود هذا المنطق، ولا يمكن إلا أن يكون ضرورياً، ولكنه منطق سلبي، يعمل دور الكف عن التنازل

ويتوقف عند هذا الحد.هناك أسئلة ملحة تواجه المسلمين بشكل يومي عن علاقتهم بعصرهم، وعلاقتهم بغيرهم، (أعني الغرب وحضارته على وجه الخصوص)؛ والواقع أنه إذ لم يتخذ الخطاب الموسوم بالوسطي موقفاً "متطرفاً" من الغرب ومعارفه الحديثة (يتلخص أننا سبقناهم بالعلوم، وبالتالي لا داعي للأخذ والاستفادة منهم)، فإنه على الغالب يتجاهل هذه الأسئلة عموماً ويؤجل الإجابة عنها إلى مالانهاية بالالتفات إلى مواجهة مشاكل التطرف في فهم الدين وممارسات العنف التي تتم باسمه. إن مسؤولية الوسطية مواجهة التطرف لا تقف عند حدود فهم الدين وممارسته اليومية، لكنه يتعداه إلى فهم الآخرين والتعامل معهم باسم الدين، ليس مطلوباً من الخطاب الوسطي تقديم حلو معرفية، لكن الخطاب الوسطي يؤسس لموقف عام تجاه الغرب ومعارفه والعلاقة معه، وكان حرياً بخطاب الوسطية في استنفاره بعد أيلول/ سبتمبر 2001 أن يتوجه لعلاقة مع الغرب، فقد أثيرت مسألة المواجهة الحضارية بجوار المواجهة السياسية في تفسير أحداث سبتمبر والعنف الذي حدث باسم الإسلام؛ فقد صورت المسألة كما لو أنها مواجهة بين "الإسلام" والعصر، فالإحداث ليست إلا ردة فعل "الإسلام المتخلف" تجاه "الغرب المتحضر"!!.وإذا عمل الخطاب الوسطي على مواجهة التطرف في اعلاقة مع الغرب وأسس لنوع من المصالحة العامة للمسلم مع العالم عموماً بتشكيل موقف إيجابي تجاهه وتخليصه من نزعة المؤامرة المزمنة فإن هذا سيكون أكبر إنجاز للوسطية، وسيمهد للاستفادة من معارف العصر أولاً، ويهيء شروط المشاركة الحضارية ثانياً.2. البناء المشروط للفكر الجديد:ما نعنيه بالفكر الجديد ليس هو إعادة صياغة شكلانية للمفاهيم التقليدية عن الدين بلغة تعبيرية اعتاد عليها أهل هذا الزمان، إن هذه الإعادة في الواقع ليست إلا تكراراً لم تم أنجازه في الماضي دون أخذ بالحسبان ما حصل من تغييرات عميقة للغاية في حياتنا اليوم، وفي صعوبة الأسئلة التي تواجهنا في هذا العصر، بل إن هذا التجديد الشكلاني للمعارف الإسلامية يقر ضمناً بأنه ليست لدينا مشكلات أو صعوبات حقيقة مع العصر على الإطلاق! وإذا حددنا مهمة التجديد الديني ببناء نسق جديد للتفكير (Paradigm)، أو نموذج جديد للتفكير (حسب تعبير توماس كون) يتضمن إعادة اعتبار لعلاقة الدين مع العصر ودوره كرسالة عالمية في إطار التحولات الكبرى التي شهدها العالم الإسلامي منذ بداية تداعي الخلافة العثمانية وتحول العالم الإسلامي من المركز إلى الأطراف قوة سياسية وحضارة غاربة.خطاب الوسطية ليس مسؤولاً عن التجديد الديني، فالتجديد الديني حراك علمي أولاً وقبل كل شيء، والوسطية ما هي حراك عام متركز في العلاقات العامة والموقف الكلي من الآخرين، بمعنى آخر ليست مهمة الوسطية إنشاء معرفة علمية، مهمتها تعدي المزاج العام ليكون متصالحاً مع نفسه والعالم، ليكون إيجابياً ومتفائلاً قادراً على الأمل. إنه بهذا المعنى الأرضية التي يستند إليها

التجديد الديني ليتوسّع، ويسرِّع حركته، ويصبع قابلاً للجمهرة. وفي المحصلة فإن تسريع إعادة بناء الفكر الديني ما هي إلا شراكة بين خطاب الوسطية وخطاب الإصلاح الديني، ودون هذه الشراكة سيعاني التجديد الديني صعوبات كبيرة، وستعاق حركته بشكل ملحوظ.3.

الشراكتان:إذا كانت الوسطية هي مجرد موقف إيجابي تجاه الآخرين ومعارفهم وآرائهم، فإنه تكمن أهميتها أساساً في ذلك، وهذا ما يجعلها شريكاً حقيقياً للتجدي الديني، وفي الوقت الذي يفتقد التجديد الديني للمناخ الملائم للفعل والنشاط فإن الوسطية تؤمن له بجدارة هذا المناج والبيئة الاجتماعية الملائمة، إنه يسهم في تحديثها، و"التحديث السوسيولوجي (الاجتماعي) هو الحامل الأول لتحديث ديني، لا تصحبه إعادة صياغة أيديولوجية"؛ لأن مهمة التجديد معرفية ومهمة الوسطية اجتماعية أكثر منها معرفية، إنها مهمة تبدأ قبل إنتاج المعرفة، فهي "شرط" وليست ركناً (على حد تعبير الفقهاء) في عملية إعادة بناء الفكر الديني، ولأن هذا هو المنطق الطبيعي لدورها فقد احتضن الخطاب الوسطي وبدرجات مختلفة الفكر الإسلامي الجديد المنطوي تحت مفهوم التجديد أو الإصلاح الديني.ثم إنه "يظل تحديث أشكال التدين غير مستقر بنيوياً، طالما لم تتبعه متابعة نظرية لتحولات الممارسة"، والذي يمكنه تقديم هذه البنية النظرية المتماسكة هة التجديد الديني، فمجاله معرفي بالأساس، وبالتالي فإن استمرار الفكر الوسطي يحتاج دوماً إلى الدعم النظري من الخطاب التجديدي الديني.في المحصلة فإن إعادة بناء الفكر الديني عموماً هي عملية شراكة حقيقية بين الوسطية والتجديد الديني، وعملية دعم متبادل بينهما، مؤداها في نهاية المطاف إعادة تشغيل الإبداع الإسلامي الخلاق في هذا العصر- في إطار معطيات الحاضر من أجل تحقيق الأمل بالنهضة.فيما يخص الشراكة مع العالم، بمعنى أن يصبح بإمكاننا أن نسهم في إنتاج الحضارة الراهنة أمر لا تنهض به الوسطية ولا الإصلاح الديني وحدهما، ولكنهما جميعاً يمكن أن يكونوا مكوناً أساسياً للنهوض الذي يفضي- بدوره للشراكة.غير أن ثمة شراكة من نوع آخر لا يملك غير المسلمين مواجهتها، هي الشراكة في مواجهة العنف الديني، والديني السياسي، خصوصاً بعد أن أصبح الإسلام في واجهة أحداث العنف من هذا النوع، وفي هذا الإطار فإن خطاب الوسطية يلعب دوراً مزدوجاً، "تحسين" صورة المسلمين، و"تهدئة" العنف الذي يقوم به بعض الإسلاميين باسمنا.على أن ذلك لا يعني الانسياق وراء أهداف رسمتها بعض الدول الكبرى لاستثمار مواجهة العنف الإسلامي لمصالح امبريالية واضحة، فالمسألة ليست سذاجة سياسية، بل نضج سياسي يعي بالضبط العبة اسياسية الكبرى ويفهم مصالح الأمة ويجيد التعبير عنها والمحاججة من أجلها، إن عليه أن "يقايض" بأناقة وذكاء السلم العالمي بالاعتراف بحقوق ومصالح العالم الإسلامي الطبيعية. بهذا المعنى

نحن نتحدث عن حاجة العالم من أجل "نشر خطاب وسطي إسلامي جديد ينأى بالإسلام عن أفعال الأقلية المتطرفة، ويعيد تقديم صورته للمسلم وغير المسلم انطلاقاً من عالمية الإسلام ووسطيته".